هذه التجربة فوجد النحل يذهب الى العسل الذي فوق الصندوق لا الى العسل الذي فوق لوح الزجاج ولكنهُ رأى ان النحل يهتدي الى الصندوق سواء كانت الآلة الموسيقية دائرة او غير دائرة اي سواء خرج منهُ صوت اولم يخرج فلم يكن ارتشادهُ اليهِ بالصوت . ويظهر لنا ان شكل الصندوق هو الذي هدى النحل الى العسل

ومن رأي بعض العلماء ان النمل والنحل يسمعان الاصوات العالية جدًّا التي لا يسمعها الانسان وانهُ ان كان لها اصوات فتكون من هذا القبيل

بمثل هذه المباحث يتسلَّى عظماء الامم الراقية مراقي الفلاح . فماذا يتسلَّى عظماؤنا ياترى وهم احوج من غيرهم الى البحث عن شيء مفيد. في المقالة التالية المعنونة بشرف العمل بيان كافٍ لما آلت اليهِ احوال قومنا وفي التي بعدها مثال ما تفعل الهمم اذا انفكَّت قيود الاوهام

شرف العمل

من المشروعات المفيدة في هذه الديار ما قامت بهِ جمعية "العروة الوثقى" في الاسكندرية من تأسيس مدرسة صناعية نسبتها الى "محمد علي" رأس الأسرة الخديوية . وقد دبَّت الايام ودرجت الشهور وما برحت الهمم متقاصرة والمبالغ التي جمعت لا تسد عوز النصف ممَّا ينبغي لهذا المشروع الجليل

لا أشير الى نتيجة هذا العمل على فرض حصولهِ اذ ليس المقام مقام نبوات والمستقبل يكشف القناع عن وجه الحقيقة . وغاية ما ينبغي ان يقال في هذا الباب ان اهل هذه البلاد والمسلمون منهم خاصة لكثرة سوادهم احق الناس بالتوفر على مذاهب المعاش الثلاثة من زراعة وصناعة وتجارة والزهد في الامارة او الاستخدام لانها ليست بمذهب طبيعي للمعاش

مضت قرون على قومنا حسبوا الخير برمتهِ محصورًا فيهم وان فضل الله لم يؤتهِ ولن يؤتيهُ سواهم وان عندهم كل شيء وان حسن اليقين والتسليم للاقدار يغنيانهم عن تعرُّف كل جديد. اغتروا ويا لضيعة الآمال بظواهر الحال ذاهبين الى ان الاغيار مهما بلغوا من درجات الرُّقي بفضل عقولهم لا يدركون شأو سلف هذه الامة في كل منحى من مناحي الحياة فاكتفوا من ثمَّ بعلالات هي بالاطفال اليق منها بالرجال وبالامم المائتة اشدُّ علاقة منها بالامم الحيَّة

ولما انسال تيار الغرب على الشرق واستصفى معظمهُ واستبيح حمى البقية او كاد اصبح القوم

يشعرون بان تلك الدعاوي الطويلة العريضة على فرض صحتها لا طوّل فيها ولا طائل تحتها وان قد انقضى دور التعزّي بالاقوال اذ هي لا تُغني غناء الافعال بحال من الاحوال

بلغ اهل بعض البلاد هذا المبلغ من النكر بعد إيقانهم بان من خرق الرأي ثقة المحكوم عليهم بحكامهم في كل شأن من شؤون الحياة لاسيما وقد اثبتت التجارب ان اغلبهم زعماء شهوات لا زعماء نهضات وامراء جبايات لا امراء زراعات وصناعات

نعم ان ما قام من الحضارة في بعض ادوار الممالك الاسلامية كان بحسنات ملوك وامراء اوجدوا بعلمهم وعدلهم العالم والعامل فانقلب الامر الى ضدّه لما قضي عليهم حتى قيل " الدول اسواق يحمل اليها ما يروج فيها " ولكن من قال اننا لم نكن في كل ايامنا اهل اتكال مجسَّم ولم يتجهّل بان كل ما اتت به الشريعة من الحث على السعي والتعلم لم تأخذ منهُ النفوس الاّ جهد طاقتها ومبلغ حاجتها

حاذَرَ الاسلام من عواقب الكسل فحضَّ على العمل ولم يأمر بالزهادة على النحل والذي عرفهُ المتأخرون المعطلون وجاء حاثًّا على الاخذ من خيري الدارين غير آمر بالخروج عن سنن الكائنات ولولا قواعد سنّت لصلاح العمران ماوجدت في المسلمين من يقوم على زرع ارض او إجادة صناعة وتجارة لكثرة ما دسَّهُ المشعوذون من الزهديّات المثبطات والخرافات المنسيات بل ولولا الحاجة الطبيعية الدافعة في بعض اقطار المشرق ما رأيت من يفكّر في استخراج البُرّ من سنابله او يحسن عمارة المساكن او يعرف نسج الثياب

ولذا ترى اكثر الفقهاء صبغوا القواعد العمرانيّة بصبغة دينيّة فقالوا ان الفلاحة والنساجة والبناية فرض على الكفاية. وقام بعد السلف خلفٌ وهموا الدخول في غمار العاملين مُزريًا بصاحبهِ ان كان لهُ ما يكفيهِ من حطام الدنيا . وقد اجمع عقلاء الاجتماع والدين ان كل عمل جسديًا كان او عقليًا لا يثلم شرف الآخذ نفسهُ بهِ . وان كلّ ما ساغ ربحهُ وجوّزهُ قانون لا يُعدُّ الاشتغال بهِ عُرّة في وجوه الاحساب ولا مَضيعة للاستعداد والكفاءات ولا مَتْلَفة للقرائح والعقول . قال عليٌّ كرم الله وجههُ اني لأرى الرجل فيعجبني فأقول ألهُ صنعة فان قالوا لا سقط من عيني

سرُّ هذا الخراب العظيم الذي تُصاب بهِ البيوتات في مصر والشام احتقارُ الاجداد والآباء للصناعات والزراعات والتجارات واكتفاؤهم من تربية ابنائهم بان يغرسوا في عقولهم حب الاحتفاظ بثرواتهم والاعتماد عليها وان احسن ما يعملونهُ بعد وفاة والديهم الجري على آثارهم . وقد رأينا كثيرين جزعوا من تبديد مخلفاتهم من بعدهم فاوقفوها ولكن ابناءهم وورثتهم نقضوا

ما ابرمهُ اولئك المورّثون وتصرفوا فيها بما شاءوا

ولو علم الآباء والاغنياء منهم خاصة ان خير ذخر يبقونهُ لاولادهم بث الملكات الصحيحة فيهم وان الثروة هي العمل وان الارض لا توجد الثروة ما لم تُبذل العناية في استثمارها واستنباتها وان الثروة ليست عبارة عن نقود ولا امتلاك عقارات وقرى للقّنوا ابناءهم ما يرتفعون بهِ عن الدنيئة اذا تجرّدوا يوماً عمّا يملكونهُ

هذه الثروات الطائلة التي تضمحل كل يوم وتسمع من انبائها عجباً كانت بمأمن من غوائل التبديد لو عرف وارثوها قدر العمل وقيمة المال وطرق اكتسابهِ . وتدارك اهل الغرب سرّ هذه القاعدة فرأينا مئات من بيوتاتهم في المانيا وانكلترا وفرنسا وغيرها من الممالك دامت لها النعمة عدة قرون وبطون على حين لم تدم نعمة بيت في بلادنا الاّ ثلاثة اجيال في الغالب

ماذا اصاب سكان غربي آسيا وشمالي قارّة افريقية حتى زهدوا في العمائر وغالى كبراؤهم في احتقارها فمحقت الاّ بقايا تدل على القديم دلالة الاثر على مؤثرهِ . وليت شعري هل اضمحلت باسباب خارجية ام داخلية وجدت في جو البلاد من ظلم حكومة واشتطاط قانون وديانة تابذ اهلها من لم يقولوا بقولهم وتمكّنت خرافات في النفوس حتى وصلت الى البلادة . ام عرّت اهل البلاد امورٌ طبيعية ربّت فيهم الخمول وعششت الجبر المحض في قلوبهم فطفئت جذوة العمل من رؤوسهم . وسكان الاقطار الحارّة على رأي العمرانيين تضعف قواهم العقليّة والجسديّة وتغلب عليهم الخفة والطيش فيطربون للجزئيات ويتأثرون بها ولا يبكون للكليّات ولا يحزنون عليها. وكلما درّت اخلاف الطبيعة وامرعت اكناف الغبراء بخيرات الخضراء واصبح الرزق ميسوراً اخصب السكان فاستحوذت البطالة على النفوس

فاذا كان هذا هو الداعي لفقدان الصنائع واضمحلال الاجسام بحيث بَعُدت عن العمل فلِمَ لم يُصب سكان الشمال الغربي من آسيا وان شئت فقل الشمال الشرقي بما أُصبنا بهِ منذ قرون وبلادهم ليست دون بلادنا بحرارتها متشابهة بطبائع اقاليمها واهلها . وها اننا نرى الفرس وهم اخواننا في الانحطاط لم يزالوا متوفرين على الصنائع شأنهم في القديم وامتازوا بها على مجاوريهم امتياز الانكليز على جميع امم الغرب بميلهم الى الصناعات قديماً وحديثاً مما دعا الى تقدمهم اشواطاً الى الامام فصاروا كالطلائع من جيش المشارقة وغيرهم كالقواعد والمخلفين

وبلغنا لهذا العهد عن اهل الطبقة العالية في ايران وبخارى والافغان انهم يقضون الساعات في عمل ما من نجارة وحدادة وحياكة ورسم وخط ونقش وحفر وغيرها يتلهون بها ويعوّدون بالمران عليها عضلاتهم وان لم يتوقع اكثرهم منها نفعاً ماديّاً شأن اغنياء الغرب لعهدنا

فانهُ لا بدَّ لكل واحد منهم ان يختص بصناعة تفيد مجتمعهُ وتسليهِ في وحدتهِ وترفّض جسمهُ وترفع قدرهُ عن نسبة البطالة اليهِ " وغبار العمل خير من زعفران العطلة " . ولعلَّ الفرس ورثوا حب الصناعات فتسلسلت فيهم لانهم من اصل آريّ يجتمعون والسكسونيين في جرثومة واحدة كما يقول الباحثون في اصول الشعوب

ألاَ وان الصناعات ليست كما يعتقدها في بلادنا من أُشربت قلوبهم مقت العمل وربوا في مهاد الاتكال والكسل . فقد مارسها كبار رجال الخليقة وما تقززوا منها وهم ينزعون الى اسمى المطالب وينشدون اشرف الغايات . فقد كان نوح نجارًا وموسى راعيًا ومحمد تاجرًا واصحابهُ كانوا يتاجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم وكان ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان بزّازين وعمروَ بن العاص جزازًا وسعد بن ابي وقاص يبري النبال وابو حنيفة النعمان خزازًا ببيع الخز وابو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية كان على غناهُ يجلب المواشي الى الكوفة والثعالبي صاحب اليتيمة كان فرّاء يخيط جلود الثعالب والحريري صاحب المقامات كان يعمل الحرير ويبيعهُ وابن حوقل الجغرافي كان تاجرًا وياقوت الحموي الجغرافي اشتغل بالمتاجر وابو بكر القفال الفقيه المروزي كان ابتداء اشتغالهِ بالعلم على كبر السن بعد ما افنى شبيبتهُ في عمل الاقفال وابو منصور الجواليقي احد الائمة في فنون الادب نسب الى الجواليق وبيعها وابو اسحق الزجاج النحوي كان زجاجًا. وهكذا لو تقصيت سير المشارقة من قبل تجد في علمائهم وامرائهم الفلاَّح والنسَّاج والحائك والفرّاء والخياط والصفار والقصار والمعمار والحجار والعطار والبيطار والدهان والسمان

ومثلهم كثير في المغاربة[1] فقد كان من الصنَّاع طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وكان افلاطون الحكيم زيَّاتًا يطوف بلاد مصر وسبينوزا الفيلسوف اليهودي عاش بصقل زجاجات المناظر وليبنيوس النباتي تعلم وهو يعمل في السكافة وشكسبير رأس شعراء الانكليز كان يدير الملاعب وداود ريكردو واضع الاقتصاد السياسي كان تاجرًا وبيلي الفلكي كان سمسارًا ويوحنا ستورت ميل الفيلسوف فاحصًا في شركة الهند الشرقية . وتعلم فرغوسن الهيئة وهو مرتدٍ بجلود الغنم على رؤوس التلال وملردرس طبقات الارض وهو يعمل في المقالع . وكثيرون من الاحياء يتجرون ويحترفون فان رئيس جمهورية سويسرا يتاجر بالاقمشة واللورد روزبري كبير وزراء انكلترا لهُ تجارة واسعة ببيع اللبن واللورد لوندندري يبيع الفحم واللورد هاربجتون يبيع الثمار والبقول

لا جرم ان النهوض بالشرق متعذّر ما لم يسعَ اليهِ كبراؤهُ ومتى فكرت الطبقة العالية فيما

(١) راجع كتاب سرّ النجاح لعربي منشئ المقتطف ففيهِ الغنية من اخبارهم

انتهت اليهِ حال البلاد يحسن حال الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا ومتى قام في الامة أُناس مثل كمال بك وهدايت باشا وغيرهما من الرجال العاملين يُرجى للشرق بعض الرجاء أن يلحق بشقيقهِ الغرب . واليك مثالاً من حال هذين الرجلين في العلم والعمل

كمال بك رأس النهضة العثمانية الاخيرة وقائد عصابتها واكبر كاتب وشاعر تركي عرف معنى الوطن والوطنية . ومن جملة ما عملهُ في احدى نفياتهِ الى جزيرة رودس ان تقرَّب من بعض معلمي الكتاتيب وطفق يصلح لهم طرق التدريس ويبث الغيرة في قلوبهم وقلوب تلامذتهم من تربية الملكات تربية صحيحة وتلقين العلم النافع ولم تمضِ سنوات حتى تخرَّج بفضلهِ نحو ثلثمائة طالب قاموا بدعوتهِ واهتدوا بهديهِ

وكان من امر هدايت باشا انهُ مرَّ بحلب على ما روى فاضل حكيم ذاهباً الى البصرة والياً عليها فلما كان يطوف ازقة الشهباء بصر فاعلاً يخمر الطين على طريقة صعبة لا يحسن بها فوقف قائلاً للفاعل ما هكذا يعمل الطين واشار اليهِ بكيفية اسهل واحسن فلم يفهمها فما كان من المشير المشار اليهِ الاَّ ان خلع حذاءهُ وسراويلهُ وراح من ساعتهِ يغوص في الطين الى نصفهِ ليعلم العامل كيف يجبل التراب . وصارت القاعدة التي عملهُ اياها مطردة الاستعمال عند كل طيانة حلب الى هذا اليوم

فبمثل هذين الرجلين تحيا العلوم والصنائع وترتقي البلاد بماديانها ومعنوياتها ومن لنا بامثالهم يؤسسون في كل مدينة وبلدة من بلدان المشرق مدرسة او معملاً للصناعة والزراعة والتجارة . وبعيد علينا محاكاة سابقينا دفعة واحدة فلكون سنن لا يتعداها وللارتقاء مدارج لا مناص من الصعود عليها ينبغي لنا ان نهض بانفسنا لا بحكامنا ونتشبه بالناجحين ما ساعدت المكنة ونبدأ بالجزئيات لنصل منها الى الكليات

والعالم ميدان جهاد لا تنفع فيهِ الاَّ الحكمة العملية ولا يسبق الاَّ من توفرت لديهم ادوات الكفاح ونفثت في نفوسهم روح العلم . وكنوز السعادة مرصودة لاهل الجلادة والنجادة وسرُّ النجاح مكتوم في بطون الليالي لا يفشى الاَّ لمن تسعهُ صدورهم . وعلى نسبة رجال الامة العاملين يحسن حالها في العالمين . فطوبى لمن بورك لهُ بساعات حياتهِ فانفقها في جلب المنافع ودرء المضار وعرف ان الوقت نقد عزيز والعمر ركاز ثمين فضنَّ بهما وسعى في ايقاظ شرقنا من رقدتهِ المزمنة وإنعاشهِ من صرعتهِ المخزنة

محمد كرد علي